دستويفسكي

صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد

ترجمة يوسف نبيل

ثلاث قصص لم تنشر



صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد

صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد– دستويفسكي

ترجمة : يوسف نبيل

القاهرة – 2015

رقم الإيـداع: 25879/ 2015

الترقيم الدولي: 7 – 179 – 751 – 977 - 978



روافد للنشر والتوزيع

القاهرة ج.م.ع

+2 01222235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد

دستويفسكي

ترجمة يوسف نبيل

صدر هذا الكتاب بتعاون ودعم مالي من جائزة

"المدافع عن الكرامة الإنسانية"

التي حصل عليها المحامي الحقوقي جمال عيد

مقدمة

هذه المجموعة تضم ثلاث قصص مفقودة للأديب العظيم: دستويفسكي. أما عن وصفها بمفقودة فلذلك بعض الأسباب.

قام المترجم العظيم: سامي الدروبي بنقل الأعمال الكاملة لـ دستويفسكي إلى اللغة العربية، وطُبعت ترجمته العديد من المرات ومازالت، وكان آخرها في مصر طبعة مكتبة الأسرة منذ عدة أعوام. وهي ترجمة ليست عن الأصل الروسي بل عن النص الفرنسي، ومع ذلك كانت ترجمة عظيمة، فيمكن القول أن سامي الدروبي كان على علاقة وثيقة للغاية بدقائق وتفاصيل أدب دستويفسكي بصورة يصعب أن تتكرر، بالإضافة إلى أن النص الفرنسي كان منقولا بدقة متناهية وهي تعد من أوائل الترجمات التي تُرجمت لها أعمال دستويفسكي.

بعد أن قارنت بدقة بين أعمال دستويفسكي في الأصل الروسي والأعمال التي ترجمها لنا المرحوم سامي الدروبي اكتشفت فقدان خمس قصص. هذه القصص تشمل الثلاث المنشورة بهذا الكتاب بالإضافة لقصتين أخرتين لم أقم بترجمتهما؛ لأنه قد سبق لدار التقدم بموسكو بالفعل

أن قامت بنشرهما في ترجمة رائعة ضمن كتاب يشمل قصصًا مختلفة لدستويفسكي، وعنوان هاتين القصتين بالروسية: Сонсмешногочеловека

وهي ما يمكن ترجمتها بـ: حلم رجل مضحك، والأخرى: Кроткая ويمكن ترجمتها بـ: الوديعة.

أما عن القصص الثلاث الواردة في هذا الكتاب؛ فأولها: الفلاح ماري لم تترجم إلى العربية من قبل، والثانية: صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد تُرجمت ترجمة مختصرة على بعض المنتديات، وهي ترجمة من الإنجليزية أسقطت الجزء الأول من القصة بالإضافة لكونها غير دقيقة في بعض مواضعها، وترجمت أيضًا تحت عنوان غير دقيق. القصة الثالثة: بوبوك لم تترجم أو تنشر في مصر من قبل أيضًا.

عن المجموعة:

الفلاح ماري: كتب دستويفسكي هذه القصة في عام 1876. وهي تعد القصة الوحيدة بمصاحبة: ذكريات من منزل الأموات، التي تحدث فيها الكاتب عن الفترة التي قضاها في سيبيريا محكومًا عليه بالأشغال الشاقة. إنها قصة قصيرة وصغيرة في حجمها تعد بمثابة نوع من التأمل

الفكري لدستويفسكي حول الطبيعة البشرية. لا يمكن أن تمر قصة واحدة لهذا الأديب دون أن يقدم لنا مفهومًا عن الطبيعة البشرية وتناقضاتها وحجم التعقيد الهائل بها، فهي كون وعالم كامل. يقدم لنا دستويفسكي في هذه القصة إيمانًا حقيقيًا بالإنسان مهما انحطت صورته وظروفه فيظل لديه القدرة على مفارقة الطبيعة والواقع... إنه ليس خاضعًا لحتميات طبيعية أو بيولوجية أو سلوكية، بل لديه تلك القوة التي تدفعه لفعل غير متوقع، حتى وإن لم يستخدم هذه القوة والإمكانية في غالب الوقت إلا أنها لديه وتظهر في بعض الأوقات. إن الإنسان لدى دستويفسكي لا يمكن وصفه بالمادية... إنه مخلوق معقد لديه دوافع عديدة روحية، ولا أقصد هنا بدوافع المعنى النفسي المباشر الذي يجبر الإنسان على فعل ما، فدستويفسكي يصر دائمًا في قصصه على تلك الهبة الممنوحة للإنسان من الحرية.

صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد:

هذه القصة كُتبت أيضًا في عام 1876من وهي قصة قصيرة تنقسم إلى جزئين متتاليين يعرض فيهما الكاتب لأهوال تواجه الفقراء من الأطفال. ويذكرنا ذلك الموضوع بأسئلة إيفان كرامازوف الشهيرة حول أزمته الوجودية مع

الشر وتعذيب الأطفال... لم يكن بإمكانه أن يجد أي تبرير لتعذيب طفل واحد في هذا العالم، حتى وصل به الأمر لقوله إنه إن كان الله يعلم أن ذلك سيكون تكلفة خلق هذا العالم فمن الأفضل لو لم يكن قد خلقه من البداية!

يخبرنا ذلك الإلحاح المتكرر في قصص دستويفسكي عن الأطفال - في العديد من الأعمال - عن انشغال الكاتب بهذا العالم. وقد سبق دستويفسكي كثيرًا من علماء النفس في اكتشاف مدى تعقد وثراء هذا العالم، فهو ليس ذلك العالم الساذج البسيط، ونقل لنا ذلك في شخصيات أطفال بالعديد من أعماله، ويمكن أن تكون أشهرها قصص الأطفال بالرواية الخالدة: الأخوة كرامازوف.

إن قصة: صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد تعد بمثابة مرثاة صغيرة لهذا العالم الذي يمكن فيه تعذيب طفل، وعندما ينقل لنا دستويفسكي هذه الرؤية نجد اختلافًا كبيرًا للغاية بينه وبين كتاب آخرين ممن يمكن أن يندرجوا تحت لواء المدارس الواقعية والواقعية الاشتراكية مثلا.. فهو لا ينقل عذاباتهم وآلامهم ككاميرا ترصد تغيرات المجتمع، بل ينقلها لنا من منظور نفسي وروحي يظلل أعماله دائمًا.. يقدمها لنا في حلم جميل وبائس في الوقت نفسه... إنه دستويفسكي كاتب المتناقضات.

بوبوك:

ظهر نص «بوبوك» للمرة الأولى، ضمن إطار سلسلة نصوص نشرها دستويفسكي في عام 1873 تباعًا في مجلة «جراشدانين» (المواطن) تحت عنوان عام هو «يوميات كاتب». مع هذا، علينا أن ندرك أن قصة «بوبوك» لا علاقة لها بأية يوميات، بل هي قصة خيالية شديدة الغرابة بالنسبة للكتابات الأخرى لدستويفسكي.

يطلق باختين على تلك القصة الغريبة: (كونا – مايكرو) لكامل أعمال دوستويفسكي، ففيها يكشف لنا عن الكثير من القضايا الجوهرية والأسئلة الهامة التي شغلت بال دستويفسكي وعرضها لنا في أعماله الضخمة مثل الجريمة والعقاب والأخوة كارامازوف والأبالسة وغيرها...

إنها قصة شديدة الغرابة تبدو كما لو كانت قد نقلت ذلك الأديب من أجوائه الواقعية إلى أجواء فانتازية غريبة، ولكن هذا لا يبدو دقيقًا بعد بعض التمهل والتأني... إنها بحث نفسي أيضًا عن الطبيعة البشرية يكشف لنا عن جانب مناقض لما كشفه لنا في قصة: الفلاح ماري.. تلك المرة يناقش دستويفسكي مدى وضاعة وخسة النفس البشرية... إنه يقدم لنا النقيض الكامل لها، فهو يرى في

سائر أعماله كافة إمكاناتها وتجلياتها المختلفة بل والمتناقضة والتي ربما تصدر عن نفس الشخص في بعض الأعمال ليبرز لنا حجم التعقيد الهائل بها.

يقدم لنا دستويفسكي تلك الرؤية بشكل مركز ومكثف للغاية في تلك القصة التي تدور أحداثها في إطار هزلي عن حوار بين الموتى يستمع له أحد الكتاب عند المقابر، وتحيط السخرية بكافة أجزاء الحوار... سخرية تكشف لنا تلك الأعماق السحيقة التي يخاف البعض من لمسها..

لقد قدم لنا دستويفسكي في هذه القصة رسالة مفزعة في إطار هزلي للغاية ومكثف. ولم يفت الكثيرون بالطبع أن يشيروا إلى التشابه في بعض سمات هذه القصة مع قصة الأنفس الميتة لجوجول، ولكن حمل الطرح الفلسفي والنفسي هنا كافة سمات دستويفسكي بوضوح.

الفلاح مَارِي

أعتقد أن قراءة كل تلك الاعترافات الإيمانية أمر شديد الملل. ومع ذلك فسوف أقص عليكم إحدى القصص.. إنها ليست مجرد قصة.. إنها ذكرى.. ذكرى بعيدة أريد تذكرها وحكايتها الآن بالتحديد. وفي نهايتها سنصل إلى حقيقة ما من شعبنا.. وقتها لم أكن قد تجاوزت التاسعة.. لا... بل كنت في بدايتها... لا .. لن أبدأ القصة كذلك.. سنبدأ بالآتي: عندما كنت في التاسعة والعشرين!

حدث ذلك في اليوم الثاني من أسبوع عيد القيامة. كان الجو دافئًا والسماء زرقاء والشمس مشرقة ساطعة؛ أما روحي فكانت كئيبة جدًا. سرت الهوينى خلف ثكنات السجن. حدقت في سياجه الكئيب محصيًا قضبانه، ولم تكن لدي النية في مواصلة العد، اعتقد أن العد كان مجرد عادة. كان ذلك اليوم الثاني من أيام العطلة في السجن، ولم يكن من المعتاد أن يصطحبوا المساجين في تلك الأيام للعمل، وكانت هناك أعداد من السكارى يتشاجرون ويعبثون مثيرين الجلبة باستمرار في كل ركن. كانت هناك أغانٍ شائنة مقززة وأوراق كوتشينة ملقاة بجانب الأسِرَّة. والعديد من المدانين محكوم عليهم بالعقوبة من زملائهم لعنف ما، مضروبين حتى الموت، راقدين جنب الفراش

مغطين بجلد الغنم ليتعافوا مرة أخرى. استُلت السكاكين عدة مرات بالفعل. وفي هذين اليومين من العطلة كان كل ذلك يعذبني حتى أوشكت على المرض. وبالفعل لم يمكنني التحمل دون أن أشعر بالاشمئزاز من جلبة وفوضى السكارى، خاصة في ذلك المكان. في تلك الأيام لم ينظر ضباط السجن إلى ما يجري، ولم يقوموا بأية تفتيشات ولم يبحثوا عن الفودكا؛ متفهمين أنه يجب عليهم السماح بتلك الأمور البغيضة ليستمتع بها المساجين مرة في العام، وإلا ستصبح الأمور أسوأ إن لم يفعلوا.

أخيرًا: اضطرم فجأة غضب شديد في قلبي. وقد التقاني سجين سياسي يدعى م ونظر إليّ بعبوس، التمعت عيناه وارتعشت شفتاه قائلا: "كم أمقت هؤلاء المجرمين"[1] وتمتم لي بهذه الكلمات من بين أسنانه وسار مبتعدًا. عدت إلى باحة السجن على الرغم من مرور ربع ساعة فقط من خروجي منه، وكأنني قد جننت. ساعتها اعترض ستة تابعين أقوياء طريق جازين التتري المخمور وبدأوا في ضربه... ضربوه بغباء، فمن الممكن لجمل أن يموت من فرط تلك الضربات، ولكنهم عرفوا أن هذا الهرقل لا يمكن قتله بسهولة، لذلك ضربوه دون شفقة. وأثناء عودتي لاحظت

[1] قالها بالفرنسية في الأصل.

على ذلك الفراش في الركن البعيد من الغرفة جازين يرقد فاقدًا الوعي.. لا تبدو عليه إمارات الحياة. لقد استلقى مغطى بجلد الغنم، وسار الجميع بالقرب منه دون أن يقولوا كلمة واحدة رغم أنهم كانوا يأملون أنه سيفيق مرة أخرى في الصباح، إلا أن الحظ عانده؛ فربما يموت المرء إثر ضرب مشابه.

أكملت طريقي إلى مكاني المواجه للنافذة ذات القضبان الحديدية، واستلقيت على ظهري، ويدي خلف رأسي وأغمضت عيني. أحببت الرقود فرجل نائم لا يزعج أحدا، في ذلك الوضع يمكن للمرء أن يحلم ويفكر. ولكني لم أستطع أن أحلم فقد كان قلبي يدق بصعوبة وكلمات السيد م "كم أمقت هؤلاء المجرمين" ترن في رأسي... لماذا أصف مشاعري؟ أحيانًا، وإلى يومنا هذا، أحلم في المساء بهذه الأوقات، وليست لدي أحلام أكثر بؤسًا منها. ربما سيُلاحظ أني لم أتكلم عن حياتي في السجن- إلى يومنا هذا- في أي كتاب؛ إلا مرة واحدة بصعوبة، وكان ذلك في كتاب: "ذكريات من منزل الأموات" الذي كتبته من خمسة عشر عامًا من خلال شخصية مُتخيلة: مجرم قتل زوجته. وعلى ذكر الأمر فقد ذكرت ذلك بسبب أن الكثيرين –كما

أفترض– إلى الآن يظنون أني قد حُكم عليّ بالأشغال الشاقة لقيامي بقتل زوجتي.

وبالتدريج غصت في غياهب النسيان والإهمال، وغصت تدريجيًا في بحر الذكريات. وطوال تلك الأعوام الأربعة التي قضيتها في السجن كنت دائمًا ما أستدعي الماضي، ويبدو كما لو عشت حياتي بأكملها مرة أخرى بالتذكر. لقد عصفت هذه الذكريات بذهني وحدها، لم أقم بإرادتي باستدعائها. ستبدأ الذكريات من نقطة ما.. شيء ما صغير، ربما في بعض الأوقات لا يُلاحظ والآن ينهض بالتدريج ليرسم صورة كاملة، ويخلق انطباعًا حيًّا وكاملا. لقد تعودت أن أحلل هذه الانطباعات وأن أضفي صورًا جديدة على ما حدث منذ زمن طويل، والأفضل من كل ذلك أني تعودت على أن أصححها.. أصححها باستمرار، فقد شكل ذلك متعتي الكبرى. و بهذه المناسبة تذكرت فجأة لسبب ما مشهد عابر في طفولتي المبكرة؛ عندما كنت في عمر التاسعة فقط... مشهد عابر كان يجب أن أظن أني نسيته تمامًا، ولكن في ذلك الوقت كنت مغرمًا بذكريات طفولتي البعيدة. لقد تذكرت شهر أغسطس في منزلنا الريفي... يوم مشرق جاف، ولكنه بارد وعاصف بعض الشيء، فقد كان الصيف على وشك الانتهاء، وقريبًا

سيتوجب علينا الذهاب إلى موسكو؛ لنشعر بسأم الشتاء مع دروس اللغة الفرنسية. كنت حزينا لأني سأغادر الريف. سرت على الأرض المغطاة بالعشب الأخضر، وهبطت إلى الوادي حيث الأدغال الكثيفة تملأها الأشجار التي غطت الجزء البعيد من الوادي بقدر امتداده. واندفعت إلى اليمين في وسط الأشجار. وسمعت صوت فلاح يحرث الأرض بمحراثه على بعد ثلاثين خطوة تقريبًا. عرفت أنه كان يحرث الوادي الشديد الانحدار. كان الجواد يتحرك بمشقة بالغة. ومن وقت لآخر كان صوت الفلاح يتهادى إلى أذني بينما يقول: "هيا.. هيا".

كنت أعرف تقريبًا كل فلاحينا، ولكني لم أهتم بمعرفة من يحرث الآن؛ فقد كنت غارقًا في أفكاري الخاصة. مشغولا، أقطع الأغصان من شجر الجوز لأطارد بها الضفادع. يمكن الحصول على سياط جيدة من أغضان شجر الجوز، ولكنها لا تعمر طويلا بينما على النقيض تمامًا أغصان شجر البتولا. كنت مهتمًا أيضًا بالخنافس وحشرات أخرى تعودت جمعها. كانت أشكالها مزخرفة للغاية. وكنت مغرمًا أيضًا بالسحالي الصغيرة الحمراء والصفراء.. السحالي الذكية الصغيرة بتلك البقع السوداء، ولكني كنت أخاف من الثعابين. ومع ذلك فقد كانت

الثعابين أشد ندرة من السحالي. ولم يكن هناك العديد من فطر عيش الغراب، ولكي يحصل المرء على فطر عيش الغراب؛ عليه أن يذهب إلى خشب أشجار البتولا، وكنت على وشك الذهب إليها. لم أحب شيء في العالم قدر حبي للأخشاب وفطر عيش الغراب خاصتها وتوتها البري، بخنافسها وطيورها وقنافذها وسناجبها. الرائحة الرطبة للأوراق الميتة أحببتها للغاية، حتى أني أشم شذا خشب شجر البتولا بينما أكتب ذلك... كل هذه الانطباعات ستبقى بداخلي طيلة حياتي.

في وسط ذلك الهدوء العميق وفجأة سمعت صرخة واضحة جلية تقول: "ذئب".. صرخت بكل هلع بأعلى صوت لدي، وركضت بعيدًا عن الأشجار صوب الفلاح الذي كان يحرث الأرض. لقد كان الفلاح ماري الذي يعمل لدينا. لا أعلم إن كان هناك اسم مشابه أم لا فالجميع هنا يدعونه ماري. فلاح مهذب في الخمسينيات من عمره شعره رمادي كثيف وجميل ينساب على جبهته البنية الداكنة. لقد عرفته، ولكن نادرا ما كلمته إلى تلك اللحظة. أوقف جواده عندما سمعني أصرخ. قبضت بإحدى يدي على المحراث متقطع الأنفاس وبالأخرى أمسكت كمه انتبه إلى هلعي بينما صرخت لاهثًا:

- هناك ذئب.

حرك رأسه ولم يكف عن النظر في كل الاتجاهات. وفي الأغلب كان يصدقني:

- أين هو الذئب؟
- لقد سمعت صرخة.. أحدهم صرخ: ذئب.
- هراء.. هراء.. أي ذئب؟ لماذا حدث ذلك؟ كان الأمر من صنع خيالك، كيف يمكن أن يوجد ذئب؟

دمدم ببعض الكلمات مطمئنًا إياي، ولكني كنت أرتعش كاملا وظللت ماسكًا بردائه، ولابد أني كنت شاحبًا للغاية. نظر إلي بابتسامة مضطربة، وبدا قلقه واضحًا عليّ.

- لماذا خفت؟ يا عزيزي.. تعال.. تعال يا صغيري.

ومد يده وربتت يداه على خدي.

- تعال.. تعال هنا.. يحفظك المسيح.. أرشم نفسك بعلامة الصليب.

ولكني لم أرشم نفسي بالصليب... كانت شفتاي ترتعشن، وقد اعتقدت أن ذلك على وجه الخصوص قد صدمه؛ فقد مد إصبعه الأسمر الغليظ الملطخ بتراب الأرض ولمس بنعومة شفتيَّ قائلا:

- تعال هنا..... يا عزيزي.. ما الأمر؟ تعال تعال.

قالها بابتسامة بطيئة أمومية. وقد فهمت أخيرًا أنه ليس ثمة ذئب، وأن الصرخة التي سمعتها كانت من وحي خيالي. ومع ذلك فقد كانت الصرخة شديدة الوضوح، ولكني قد تخيلت من قبل مثل تلك الصرخات مرة أو مرتين، كنت واعيًا بذلك، وقد زالت تلك الهلوسات بعد ذلك عندما كبرت.

قلت بينما أنظر له متسائلا بجبن:

- حسنًا... سوف أذهب إذن.

فأجابني بينما ظل مبتسمًا تلك الابتسامة الأمومية الحانية:

- حسنًا.. افعل ذلك وسوف أستمر بمراقبتك. لن أسمح للذئب أن يتمكن منك. سوف يحرسك المسيح.. أركض.. هيا يا عزيزي انصرف.

أشار بيده راسمًا علامة الصليب لي وله. سرت مبتعدًا ناظرًا خلفي كل عشر خطوات تقريبًا. ظل ماري واقفًا مع فرسه بينما كنت أبتعد، ناظرًا إلي ومومئًا لي برأسه في كل مرة ألتفت صوبه. ولابد أن أعترف أني شعرت بالخزي قليلا من رؤيته لي وأنا في ذلك الهلع، ولكني كنت ما أزال أشعر

بالخوف من الذئب عندما ابتعدت حتى وصلت إلى أول إسطبل في نصف المسافة لمنحدر الوادي. وهناك اختفى خوفي كاملا وطار كلب حظيرتنا فولتشوك هارعًا للقائي. شعرت بالأمان إلى حد كبير مع فولتشوك، والتفت إلى الخلف ناظرًا للمرة الأخيرة إلى ماري.. لم أتمكن من رؤية وجهه بوضوح، ولكني شعرت بأنه مازال يومئ لي مبتسمًا بحنان. لوحت له ولوح لي هو الآخر، وصاح مرة أخرى في جواده" هيا.. هيا.." وسمعت صيحته على مسافة بعيدة، وعاد الجواد في الحرث مرة أخرى.

تذكرت كل هذا دفعة واحدة ولا أعرف السبب، ولكني تذكرت ذلك بكامل التفاصيل بشكل دقيق للغاية. أيقظت نفسي فجأة وانتصبت على طرف الفراش، وأذكر أني وجدت نفسي ما زلت أبتسم بهدوء على أثر ذكرياتي. استغرقت في التفكير والتأمل في تلك الذكريات لدقيقة أخرى.

عندما عدت إلى المنزل في هذا اليوم لم أخبر أحد بمغامرتي مع ماري. كانت بالفعل مغامرة صعبة، وفي الواقع سرعان ما نسيت ماري. التقيته أحيانًا ولم أتحدث معه أبدًا عن الذئب أو أي شيء آخر، وبعد كل ذلك.. بعد

عشرين عامًا ومن سيبيريا تذكرت ذلك اللقاء بكل هذا الوضوح الذي شمل أصغر التفاصيل. لابد وأنه كمن إذن مختفيًا في نفسي مع أني لم أعلم شيئًا عن ذلك، وظهرت فجأة الذكرى عندما كنت في حاجة إليها... لقد تذكرت تلك الابتسامة الحنونة لذلك الفلاح العبد الفقير، والطريقة التي لوح بها لي ورشمه للصليب هازًا رأسه: " لابد وأنك خفت يا صغيري" وتذكرت بشكل خاص ذلك الإصبع الغليظ الملطخ بتراب الأرض الذي لمس به بنعومة ورقة خجولة شفتي المترعشتين.

بالطبع أي شخص كان سيُطمئن طفلا، ولكن شيئًا ما مختلفًا بعض الشيء بدا لي أنه حدث في ذلك اللقاء المنفرد، وإن كنت ابنه الوحيد لم يكن بإمكانه أن ينظر لي بمثل تلك العينين البارقتين بكل ذلك الحب. فما الذي جعله يفعل ذلك معي؟ لقد كان عبدنا الخادم وكنت سيده الصغير رغم كل شيء. أكان مغرمًا بالأطفال؟ بعض الناس هكذا. لقد كان لقاء فريدًا في الحقول المهجورة حيث لم ير أحد ما حدث ربما سوى الله وحده من فوق. رأى كم يمكن أن يمتلئ قلب فلاح روسي فظ جاهل لم يكن لديه بعد أي توقع أو فكرة عن حريته بذلك الشعور الإنساني العميق واللذيذ، وتلك الرقة التي تكاد تكون أنثوية في حنانها. ألم

يبلى ذلك ربما ما قصده قسطنطين أكساكوف[2] عندما تحدث عن درجة الثقافة الرفيعة لدى فلاحينا؟

وعندما نهضت من على الفراش نظرت من حولي، وتذكرت أني شعرت فجأة أنه يمكنني أن أنظر إلى تلك المخلوقات البائسة بنظرة مختلفة قليلا، وأنه فجأة وبمعجزة اختفى كل الحقد والكراهية تماما من قلبي. تجولت ناظرًا في وجوه قد التقيتها... هذا الفلاح الحليق الموصوم على وجهه كمجرم يصيح في جواده ويغني مخمورًا.. ربما يكون هو نفسه ماري؟!!... لا يمكنني النظر في قلبه.

هذا المساء التقيت السيد م مجددًا. يا له من رفيق بائس! لابد وأنه لا يحمل أية ذكريات عن الفلاحين الروس أو أي وجهة نظر أخرى عن هؤلاء القوم سوى تلك المقولة: "كم أكره هؤلاء المجرمين!" نعم... لابد أن المساجين المهذبين ذوي الطبع الرقيق عليهم أن يتحملوا أكثر مني.

---

[2] كاتب روسي من القرن التاسع عشر.

صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد

1

الصبي ذو اليد

إن الأطفال شديدو الغرابة.. إنهم يحلمون ويرون رؤى مختلفة. في كل عام، وعند حلول عيد الميلاد و في أحد الشوارع وفي زاوية معينة منه، ألتقي صبيًا عند شجرة عيد الميلاد.. إنها نفس الشجرة في كل عام. لا يتعدى عمر هذا الصبي السابعة. وبينما كانت الثلوج تهطل بشكل مريع لم يكن الصبي يرتدي سوى ملابس صيفية، ولكن كان لديه وشاح قديم رث ملفوف على رقبته.. كان هذا كل ما لديه. كان يسير "بصحبة يد"... هذا تعبير فني يعني أنه يطلب صدقة. وقد اخترع الصبية أنفسهم هذا التعبير. والصبية من هذا النوع كثيرون.. يتتابعون عليك في طريقك، ويصيحون صيحة ما يتدربون عليها، ولكن هذا الصبي لم يصح ولم تصدر منه أية كلمات بريئة أو غريبة. حدق في عيني بجرأة. وبدا كما لو أنه يعلن عن مهنته. وعندما استعلمت عنه أخبروني أن لديه أختًا مريضة عاطلة عن العمل. ولم أعرف ذلك فحسب، ففي الحقيقة عرفت أن هؤلاء الصبية الذين يطلق عليهم "صبية ذوي أيد" إن عادوا خالي الوفاض –حتى في ذلك الصقيع المريع–

ينتظرهم الاعتداء والضرب. وبعد أن جهزت بعض الكوبيكات لأمنحها له وجدت وجهه قد احمر، وأشار لي بيدين متصلبتين إلى قبو ما حيث رأيت زمرة أخذت في الشرب باستهتار... مجموعة من أولئك الذين يقررون الإضراب عن العمل في المصنع يوم الأحد فيبدأون الإضراب يوم السبت، ويعودون إلى العمل قبل الجميع مساء يوم الأربعاء! وكان مع هؤلاء الرجال زوجاتهم الجياع اللاتي يتعرضن للضرب منهم، ومعهن أطفالهن الذين تصر بطونهم الخاوية من الجوع.

فودكا ووحل وفسق... والفودكا قبل كل شيء.. وبالكوبيكات القليلة التي يعود بها الصبي يرسلونه إلى البار ليأتي إليهم بالخمر من جديد. وفي بعض الأحيان يلهون أنفسهم بأن يصبوا الخمر في فمه ويغرقون في الضحك بينما يسكب الطفل ما يستطيعه من الخمر على الأرض حتى يمكنه التنفس.

طعم الخمر في فمي شديد السوء...أخذت في سكبه دون ندم!

وعندما ينمو الصبي يرسلونه للعمل في مصنع ما، وبما أنه قد بدأ في العمل وكسب المال، فإنه يجد نفسه مربوطًا بتلك الزمرة ليقدم لها المال حتى تسكر مرة أخرى. وفي

المصانع يتحول هؤلاء الأطفال إلى مجرمين حقيقيين. يبدأون التسكع في المدينة ويتعرفون على تلك الأماكن والسراديب التي يمكن أن يدخلوها ويقضوا بها الليل دون أن يلاحظهم أحد. وقد نجح أحدهم في قضاء عدة ليال بصحبة أحد البوابين في أحد الصناديق ولم يلحظه أحد.

يهاب الجميع السرقة حتى أولئك الذين تخطوا الثامنة، وأحيانًا دون أن يكون لديهم حتى أي وعي بمدى الجرم في ذلك الفعل. وفي النهاية يحصلون على كل شيء: الجوع والبرد والاعتداء. كل شيء ما عدا الحرية، وسرعان ما يهربون من تلك العصابات ليتسكعون لحساب أنفسهم. هذا الوجود الوحشي لا يكون بمقدوره فهم أي شيء.. لا يفهم أين يعيش ولا إلى أي أمة ينتمي، وهل من وجود لإله وسيد ما أم لا، وحتى تلك الأمور غير المعقولة التي تتناهى لآذانهم يعتبرونها حقائق ثابتة.

2

أنا روائي، وأظن أني اختلقت هذه القصة. وأقول "أظن" مع أني أعلم حقيقة أني قد اختلقتها بالفعل، ولكني لا أنفك أتخيل أنها يجب أن تكون قد حدثت في مكان وزمان ما، ويجب أن تكون قد حدثت عشية عيد الميلاد في مدينة ما عظيمة في وقت صقيع مفزع.

أرى في خيالي طفلا.. طفلا صغيرًا يبلغ من العمر ستة أعوام أو أصغر من ذلك. استيقظ هذا الطفل في ذلك الصباح في قبو رطب. كان يرتدي جلبابًا مرتعشًا من البرد. كانت هناك سحابة من البخار الأبيض تتشكل من أنفاسه. بينما يجلس على صندوق في زاوية القبو نفخ البخار خارج فمه، وكان يسلي نفسه في ضجر مراقبًا البخار بينما يبتعد. كان يشعر بالجوع بشكل مذرٍ. وقد ذهب عدة مرات هذا الصباح إلى الفراش المصنوع من ألواح خشبية حيث ترقد أمه المريضة على مرتبة رقيقة كفطيرة، وتحت رأسها صرة تستخدمها وسادة. كيف أتت هنا؟ لابد وأنها قد أتت مع ابنها من مدينة ما، وأصيبت فجأة بالمرض. لقد أخذوا مالكة المكان، التي كانت تؤجر "زوايا" القبو، إلى مركز الشرطة منذ يومين وأصبح المستأجرون في العراء في الوقت الذي اقترب فيه يوم العطلة، والوحيد الذي بقي في القبو

كان مستلقيا لمدة الأربع والعشرين الساعة الأخيرة، وقد مات وهو مخمور ولم ينتظر عيد الميلاد. وفي زاوية أخرى بالغرفة هناك امرأة عجوز بائسة تبلغ من العمر الثمانين كانت يومًا ما مربية أطفال، ولكنها الآن تُركت وحيدة لتموت دون صديق... كانت تتأوه من آلام الروماتيزم وتوبخ الطفل الذي خاف أن يذهب صوب الزاوية التي تجلس فيها. لقد تناول كأسًا من الماء في الغرفة الخارجية، ولكنه لم يستطع أن يجد كسرة خبز وكان على وشك أن يوقظ أمه لعدة مرات. شعر بالرعب في هذا الظلام، وقد حل المساء، دون مصباح. وقد شعر بذعر عندما لمس وجه والدته ولم يتحرك بينما كان باردًا كحائط. وفكر قائلا لنفسه: " إنه بارد للغاية". وقف لبعض الوقت واضعًا يديه دون وعي على كتفي المرأة الميتة، ثم نفخ في أصابعه ليدفئها، ثم حرك يديه بهدوء باحثًا عن قبعته على الفراش وخرج من القبو. كان يمكنه أن يذهب مبكرًا عن ذلك، ولكنه كان خائفًا من ذلك الكلب الضخم الذي يعوي طوال الليل بباب جاره أعلى السلم. وبينما غاب الكلب في ذلك الوقت خرج إلى الشارع.

يا إلهي.. يا لها من مدينة! لم ير شيئًا مماثلا لذلك من قبل. ففي المدينة التي أتي منها كانت هناك دومًا مثل تلك

السحب السوداء في المساء. كان هناك مصباح ليضيء الشارع بأكمله، وكانت مصاريع المنازل الخشبية الصغيرة ذات الأسقف المنخفضة مغلقة، ولم يوجد أي شخص في الشارع بعد الغسق. يغلق جميع الناس أبوابهم فلا يوجد شيء سوى ذلك العواء طوال الليل. هناك كان الجو دافئًا للغاية، وكان يحصل على الطعام، بينما هنا.. يا إلهي... لو يحصل فقط على شيء ليأكله! ويا لها من ضجة وجلبة هنا.. ما هذا الضوء وهؤلاء الناس وتلك الجياد والعربات. يا له من صقيع! يبدو البخار كالسحب فوق فم الجياد التي تتنفس بدفء وتثير بحوافرها ذلك الصوت فوق الصخور عبر الثلج الذائب كالمسحوق. يندفع الجميع... يا إلهي.. كم اشتاق للقمة يأكلها، وكم شعر بالبؤس فجأة. مر أحد رجال الشرطة والتفت بعيدًا متجنبًا رؤية ذلك الطفل.

هنا في شارع آخر.. يا له من شارع واسع حيث سيدهسه أحدهم بلا شك.. كم كان صياح الجميع متسابقين بعرباتهم طويلا، والضوء... ذلك الضوء.. ماذا كان؟! نافذة زجاجية ضخمة، وعبر تلك النافذة هناك شجرة تصل حتى السقف بأوراق ذهبية وتفاح وبعض الدمى والجياد... هناك أطفال يرتدون ثيابًا جميلة ونظيفة يركضون في الغرفة يضحكون ويلعبون ويأكلون ويشربون

شيئًا ما. ثم بدأت فتاة صغيرة في الرقص مع أحد الصبيان.. يا لها من فتاة جميلة! وكان يمكنه أن يسمع الموسيقى من النافذة. نظر الطفل وتعجب وضحك رغم أن أصابعه قدميه كانت تتألم من البرد، وأصابع يديه كانت حمراء متيبسة يؤلمه تحريكها. وتذكر فجأة الطفل كيف تؤلمه أصابع يديه وقدميه وبدأ في البكاء، واستمر الأمر ونظر عبر نافذة أخرى شجرة عيد ميلاد أخرى، وعلى الطاولة كعك من كل الأصناف – كعك باللوز، كعك أحمر وكعك أصفر، وثلاث شابات رائعات يجلسن هناك، يقدمن الكعك لأي شخص يذهب إليهن.

ظل الباب مفتوحًا ودخل كثير من السادة والسيدات من الشارع. تسلل الصبي وفجأة فتح الباب ودخل. يا للهول... كم صرخوا فيه وأشاروا له أن يتراجع. ذهبت إحدى السيدات مسرعة إليه وألقت له بكوبيك[3]، ولم يستطع أن يلتقط بأصابعه الحمراء ذلك الكوبيك. كان في حالة مريعة لأنه شعر فجأة بالوحدة الشديدة والهلع، كل ذلك في لحظة واحدة... يا إلهي! ماذا كان ذلك أيضًا؟ كان الناس يحتشدون وهم يشعرون بالإعجاب. وخلف النافذة الزجاجية ثلاث دمى صغيرة ترتدي ملابس حمراء وخضراء،

---

[3] عملة روسية كالقرش.

وكانت تلك الدمى تبدو كما لو كانت حقيقية تمامًا. إحداها على شكل رجل عجوز بعض الشيء جالسًا يعزف على كمان ضخم، والدميتان الأخريان تقفان على مقربة منه تلعبان على كمان صغير وتومئان في وقت واحد، وتنظر كل منهما للأخرى، وتتحرك شفاهما كما لو كانتا تتحدثان.. تتحدثان بالفعل، ولا يمكن فقط للمرء أن يسمع صوتهما عبر تلك النافذة. في البداية اعتقد الطفل أن تلك الدمى حية، وعندما أدرك أنها مجرد دمى؛ ضحك. لم ير من قبل دمى، وليست لديه أية فكرة عن وجودها. لقد أراد أن يبكي ولكنه شعر بالتسلية من تلك الدمى. وشعر للتو أن أحدهم أمسك بثوبه من الخلف... صبي ضخم شرير كان يقف خلفه.

دفعه فجأة إلى الخلف، وأسقط قبعته، واستولى عليها. سقط الطفل على الأرض سامعا الصياح. شعر بالخوف يخدره فنهض سريعًا وهرب. لقد ركض لا يعلم إلى أين يذهب.. ركض صوب بوابة حديقة أحدهم وجلس على كومة من الأخشاب، وقال في نفسه: "لن يجدوني هنا في هذا الظلام المخيم على المكان!".

تكوم الطفل على نفسه وكاد ألا يتنفس من فرط الرعب. شعر فجأة بالسعادة في هدوء. كفت يداه وقدماه

عن الألم وأصبحت دافئة للغاية كما لو كانت في فرن ثم اجتاحت قشعريرة جسمه.. لماذا؟ لابد وأنه قد نام. كم هو رائع أن ينام هنا! " سأجلس هنا قليلا ثم أذهب لأنظر الدمى مرة أخرى". وفجأة سمع صوت أمه تغني له. " أمي.. أنا نائم.. كم هو رائع أن أنام هنا!". وفجأة همس صوت ناعم بالقرب من رأسه قائلا: " تعال إلى شجرة عيد الميلاد خاصتي.. هذه الشجرة الصغيرة".

ظن أن هذا الصوت لأمه، ولكن لا.. لم يكن كذلك. من كان يناديه؟ لم يتمكن من رؤيته، ولكن أحدهم انحنى وعانقه في الظلام وبسط يديه عليه و... يا إلهي... يا له من ضوء ساطع! يا لها من شجرة عيد ميلاد! ولم تكن حتى شجرة تنوب[4].. إنه لم ير من قبل شجرة مثلها! أين هو الآن؟ كل شيء كان مضيئًا وبراقًا وكل من حوله كانت الدمى، ولكن لا... إنها ليست دمى... إنهم أطفال وبنات صغار، ولكنهم شديدو السطوع والبريق. لقد أتوا جميعهم يحلقون حوله، وقبلوه جميعهم، وأخذوه حاملين إياه معهم حتى أصبح يطير بنفسه ورأى والدته تنظر إليه وتضحك في فرح. "أمي... أمي.. كم هو رائع المكان هنا!". وقبَل الأطفال مرة أخرى وأراد أن يخبرهم على الفور عن تلك الدمى في

[4] شجر التنوب نوع من الأشجار يصنعون منه أشجار عيد الميلاد.

نافذة ذلك المتجر. وسألهم ضاحكًا ومعجبًا بهم" من أنتم يا أولاد.. من أنتن يا بنات"؟

فأجابوه: "هذه شجرة عيد الميلاد الخاصة بالمسيح.. فالمسيح دومًا لديه شجرة عيد ميلاد في ذلك اليوم. فالأطفال الصغار ليست لديهم شجرة خاصة بهم". ثم اكتشف أن جميع هؤلاء الأولاد والبنات كانوا أطفالا مثله تمامًا، فبعضهم قد تجمد في السلال التي كانوا فيها أطفالا رضع راقدين على درجات أبواب ساكني مدينة بطرسبرج الأغنياء، وآخرون أُخرجوا مع نساء فنلنديات من قبل دار اللقطاء وماتوا اختناقًا، وآخرون ماتوا على صدور أمهات كن يتضورن جوعًا (أثناء مجاعة سمارا[5])، وآخرون ماتوا داخل عربات الدرجة الثالثة في القطارات من الهواء الفاسد، والآن فجميعهم هنا.. كانوا جميعهم يشبهون ملائكة المسيح، وقد كان في وسطهم رافعًا يديه صوبهم وباركهم هم وأمهاتهم الخاطئات... وقد وقفت هؤلاء الأمهات في إحدى الزوايا يبكين، وقد عرفت كل واحدة منهن ابنها أو بنتها، فهرع الأطفال لهن وقبلوهن ومسحن دموعهن بأياديهم الصغيرة راجين إياهن ألا يبكين فقد كانوا شديدي السعادة.

---

[5] مجاعة هائلة حدثت في روسيا بداية منذ عام 1921 ومات فيها زهاء ستة ملايين شخص.

وفي الصباح وجد البواب جسد الطفل الصغير الميت متجمدًا من الصقيع على كومة الأخشاب بالأسفل، فبحثوا عن أمه أيضًا، وكانت قد ماتت قبله. لقد التقيا أمام الرب في السماء!

لماذا اختلقت مثل تلك القصة؟ أقمت بذلك لأحتفظ بمفكرة عادية، مفكرة كاتب قبل كل شيء؟ لقد وعدتُ بتأليف قصتين أستمدهما من أحداث حقيقية! لكن هذا ما جرى تمامًا، فإنني لا أنفك أتخيل أن كل هذا يمكن أن يكون قد حدث في الواقع .. أقصد ما حدث في القبو وعلى كومة الخشب؛ لكن بالنسبة إلى ما يخص شجرة عيد ميلاد المسيح، فلا يمكنني أن أخبركم ما إن كانت قد حدثت أم لا. لذلك فأنا روائي أقوم بتأليف القصص.

بوبوك

منذ ثلاثة أيام قال لي سيميون أرداليونوفيتش فجأة:

- إيفان إيفانوفيتش.. أخبرني رجاء... ألن تصبح رزينًا أبدًا؟

- يا له من طلب غريب! أنا لست مذنبًا. أنا رجل معتدل، ومع ذلك فقد قاموا بتحويلي إلى مجنون. قام أحد الفنانين دون سابق إنذار برسم بورتريه لي.

فقال سيميون:

- ومع ذلك فأنت رجل مثقف.

انتبهت لكلماته، ومن ثم بدا على ملامحه وكأنه يقول لي:

- اذهب وانظر بنفسك هذا الوجه الشاحب الذي يبدو على حافة الجنون.

- ربما يبدو كذلك فعلا، ولكن ماذا عن وضع وجهي على لوحة بهذا الشكل الفج! في الصحافة يجب أن يظهر كل شيء في صورة فخمة.. يجب أن تكون في الصحافة مُثل يحتذى به، وبدلا من ذلك فإنهم...

على الأقل قلها بشكل غير مباشر، فهذا ما تبدو عليه. ولكن لا... إنه لا يبالي بقولها بشكل غير مباشر. ففي أيامنا هذه قد اختفت الدعابة والذوق الراقي، وبدلا من ذلك

تُقبل الإساءة كالدعابة. أنا لست مستاء من ذلك، ولكن يعلم الله أني لست مثقفًا كفاية لأصاب بالجنون. لقد كتبت رواية ولم تُنشر. لقد كتبت مقالات ورُفض نشرها أيضًا. وقد ذهبت بتلك المقالات من محرر إلى آخر وفي كل مكان رفضوها. و قالوا لي إنني ليس لدى روح في الكتابة. فسألت بازدراء: أية روح تريدونها.. أتريدون روحًا إغريقية مثلا؟

ولم يفهموا حتى ما أعنيه. أقوم كثيرًا بالترجمة من الفرنسية لبائعي الكتب. أكتب أيضًا إعلانات لأصحاب المتاجر أيضًا: "فرصة ذهبية! شاي ذهبي من نتاج مزارعنا!". وقد حصلت على مبلغ جيد من الإطراء الجيد الذي قمت به على سعادة الميت السيد بيوتر ماتفييفيتش. وبتكليف من أحد باعة الكتب قمت بكتابة: "فن إرضاء السيدات". وقد كتبت ستة كتب بنفس الطريقة طوال حياتي. أفكر في جمع الأعمال الجيدة لفولتير ولكن أخشى أن تكون تلك الأعمال فاترة بالنسبة لشعبنا الروسي. ليس من الجيد نشر فولتير الآن، ففي أيامنا نحن في حاجة لهراوة.. لا لفولتير. نحن نضرب بعضنا البعض هذه الأيام حتى قطرة الدم الأخيرة.

حسنًا.. هذا هو كل نشاطي الأدبي. ومع ذلك فإني أرسل بالفعل عددًا ضخمًا من الرسائل مجانًا إلى المحررين موقعة باسمي كاملا. وأعطيهم في تلك الرسائل كافة أنواع النصائح والتحذيرات، وأنتقد بعض الأمور وأشير إلى الطريق الصحيح. وقد كان الخطاب الذي أرسلته في الأسبوع الماضي إلى مكتب محرر ما الأربعين من نوعه في العامين الأخيرين. لقد أضعت عبثًا أربعة روبلات على الطوابع وحدها من أجل تلك الخطابات. أنا في حالة مزاجية سيئة.. هذا هو الأمر.

أنا على يقين من أن الرسام الذي قام برسم وجهي لم يفعل ذلك لأني مثقفًا، ولكن من أجل هاتين البثرتين المتناسقتين على جبهتي كما لو أنه يقول: "الأمر يشكل ظاهرة" وفي هذه الأيام يلهثون خلف الظواهر لافتقادهم للأفكار. ومع ذلك كيف رسم هاتين البثرتين بهذا الإشراق؟ إنهما مليئتان بالحياة، وهذا ما يطلقون عليه الواقعية.

إذن... وبالإضافة للجنون.. فقد قاموا باعتبار عددًا ضخمًا من الناس مجانين في العام السابق، ويا له من شعارا : "هذه الموهبة الأصيلة التي تظهر رغم كل شيء... اكتُشفت متأخرًا". هذا أمر ماكر إلى حد ما، ومن وجهة نظر الفن الحقيقي يمكن حتى اعتبار ذلك مديحًا. ولكن بعد

كل شيء فقد أصبح من يطلق عليهم مجانين أحكم وأذكى من السابق، لذا يبدو أن بإمكاننا أن نجعل الناس تجن، ولكن لم نستطع أن نحسن حالة أحدهم.

وأكثر الناس حكمة من وجهة نظري هو من يطلق على نفسه أبله، حتى وإن فعل ذلك مرة واحدة في الشهر، وهو شيء لا نسمع به في أيامنا هذه. قديمًا كان يمكن لأحمق أن يتعرف على حماقته بدرجة ما، ولكن في أيامنا هذه لا يحدث ذلك مطلقًا. وقد قاموا بتشويش الأمور حتى لا يمكن أن تفرق بين الحكيم والأحمق. وقد فعلوا ذلك عمدًا.

أذكر قول أحد الإسبان الأذكياء منذ مائتين وخمسين عامًا عندما قام الفرنسيون ببناء أول مستشفى للمجانين: "لقد رموا بكل الحمقى بينهم في مكان منفرد ليتأكدوا أنهم أنفسهم حكماء". والأمر ذاته فأنت لا يمكن أن تظهر حكمتك بأن تلقي أحدهم بمستشفى المجانين: "السيد ك فقد عقله، وهذا يعني أننا عقلاء الآن".... لا إن الأمر لا يعني ذلك.

دعنا من ذلك.. يا للشيطان! لماذا أستمر في هذا الهذيان؟! ما زلت أواصل الدمدمة والتبرم! حتى خادمتي سئمت مني. بالأمس أتى أحد الأصدقاء ليزورني، وقال: "إن

أسلوبك يتغير... إنه متشظٍ، فأنت لا تنفك تواصل ضربه بالفأس... جمل اعتراضية طوال الوقت، ثم جمل اعتراضية داخل الجمل الاعتراضية، ثم تلصق بالجملة أشياء أخرى بين قوسين ثم تبدأ ضرب الجملة بالفأس لتشظيها مرة أخرى!".

يبدو أن الصديق على حق، فشيء ما غريب يحدث لي. إن شخصيتي تتغير وأشعر بصداع شديد برأسي. أبدأ الآن في رؤية وسماع أشياء غريبة.. إنها ليست أصوات بالضبط، ولكن كما لو أن أحدهم بقربي يدمدم: " بوبوك.. بوبوك.. بوبوك"! ما معنى بوبوك هذا! لابد أن أذهب لأمرح قليلا.

خرجت باحثًا عن بعض التسلية والمرح، فوجدت أمامي مصادفة جنازة تمر. إنه أمر بعيد عن المرح... لقد كانت جنازة أحد المستشارين الذي يمت إليّ بقرابة بعيدة. ترك من خلفه أرملة وخمس بنات شابات، وجميعهن صالحات للزواج. أحذيتهن وحدها تساوي الكثير! كان الأب يعولهن جميعًا أما الآن فلا يتبقى لهن سوى المعاش. أسيتوجب عليهن إذن أن يأكلن فطيرًا بائسًا؟ لطالما استقبلنني بجفاف، وقد كان علي بالفعل ألا أذهب إليهن لولا خصوصية المناسبة. تبعتُ الموكب حتى المقابر. كانوا يقفن بشموخ وتحفظ بعيدًا عني. وقد كانت ملابسي بلا

شك رثة. أعتقد أني لم آت للمقابر منذ خمسة وعشرين عامًا... يا له من مكان!

لنبدأ بالرائحة. هناك خمس عشرة جثة قد وصلت. وأغطية نعوش مختلفة في درجة غلاء أسعارها. كان هناك بالفعل نعشان بإطارين خشبيين يزينان النعش ويدعمان الصندوق. أحدهما كان لجنرال والآخر لسيدة. رأيت الكثير من الوجوه الحزينة، والوجوه التي تدعي الحزن والكثير من الوجوه الفرحة بشكل واضح وصريح. لم يكن لدى الإكليروس[6] ما يشتكون منه فالأمر يعود عليهم بعائد جيد، ولكن الرائحة... الرائحة... لا يجب علي أن أكون من الإكليروس الحقيقيين الآن!

واصلت إلقاء النظر على وجوه الموتى بحذر مرتابًا من حساسيتي. ارتسمت على وجوه بعضهم تعبيرات لطيفة، والبعض الآخر تعبيرات كريهة. الغالبية منهم كانت لديهم تعبيرات كريهة، وفي بعض الحالات كانت كريهة جدًا. لا أحب تلك التعبيرات... إنها تلتصق بك في كوابيسك.

وبينما تُتلى الصلوات خرجت من الكنيسة.. لقد كان يومًا كئيبًا وجافًا أيضًا. كان أيضًا يومًا باردًا فقد كان شهر أكتوبر. تجولت بين المقابر.. كانت مقابر من مستويات

[6] رجال الدين بالكنيسة.

مختلفة. الدرجة الثالثة تكلفك ثلاثين روبل، وهي لائقة وليست مرتفعة الثمن. أما الدرجتين الأولى والثانية فهما مقابر بداخل الكنيسة تحت الرواق وتكلفك المقبرة فيهن مبلغًا كبيرًا. وفي هذه المناسبة كانوا يدفنون ستة موتى بمقابر الدرجة الثالثة، ومن بينهم كان الجنرال والسيدة.

نظرت إلى المقابر وكان منظرها مريعًا: مياه.. يا لها من مياه! ذات لون أخضر تمامًا و ... ولكن هناك... لماذا الحديث عن ذلك؟! كان العامل بحفر المقابر يعمل على نقل تلك المياه بضخها إلى القناة. خرجت بينما الصلاة مازالت مستمرة، وتمشيت قليلا خارج البوابات. هناك ملجأ للفقراء بالقرب من المكان، وعلى مسافة أبعد قليلا يوجد مطعم. لم يكن مطعمًا صغيرًا سيئًا، فقد كان متوفرًا به طعام للغذاء وكل أنواع الطعام تقريبًا. كان هناك الكثير من المعزين. طلبت شيئًا لآكل وأشرب ثم شاركت في حمل النعش من الكنيسة إلى المقبرة. لماذا تكون تلك الجثث ثقيلة إلى هذا الحد في صناديقها؟ يقولون إن السبب هو نوع من القصور الذاتي، فالجسد لم يعد صاحبه يوجهه، أو شيء ما من هذا القبيل يناقض قوانين الميكانيكا والمنطق الطبيعي. لا أحب سماع هؤلاء الناس الذين لديهم فقط مقدار ضئيل من التعليم ويتكلمون عن أمور اختصاصية

لا يفهمون بها، وهذا يحدث معنا باستمرار. يحب القرويون أن يعبروا عن آرائهم حول الأمور العسكرية بل وعن أعلاها درجة بينما المتعلمون مثل المهندسين مثلا يفضلون مناقشة الفلسفة والاقتصاد السياسي.

لم أذهب لتناول الطعام معهم فلدي شعور بالكرامة، وإن كان الناس يستقبلونني فقط في مناسبات خاصة فلماذا أقحم نفسي معهم في الطعام؟! حتى وإن كان طعامًا خاصًا بالعزاء. إلى الآن لا أعرف لماذا ظللت عند المقابر. جلست على شاهد الضريح وغرقت في بعض التأملات.

بدأت التأملات مع معرض موسكو وانتهت مع الذهول... الذهول بشكل عام. وكانت استنتاجاتي حول الذهول كالآتي:

أن تندهش من أي شيء لهو أمر غبي بالطبع، وألا تندهش من أي شيء لهو أمر ملائم، ولبعض الأسباب مقبول، ولكن يصعب جدًا حدوثه. وأنا أرى أن عدم الاندهاش من أي شيء لهو أمر أكثر غباء من أن تندهش من كل شيء، والأكثر من ذلك أن عدم الاندهاش من أي شيء يشبه تمامًا ألا تشعر بالاحترام لأي شيء، والإنسان الغبي هو القادر على عدم الشعور بالاحترام.

قال أحد معارفي لي مؤخرًا: "ولكن أكثر ما أرغب فيه هو أن أشعر بالاحترام.. إني ظمآن للاحترام".

إنه ظمآن للاحترام! يا إلهي! ماذا سوف يحدث لك إن جرؤت على نشر شيء كهذا الآن؟ وعند تلك الفكرة نسيت نفسي. لا أحب قراءة النقوش المكتوبة على الأضرحة.. إنها متماثلة دومًا وستظل كذلك. هناك جزء متبق من شطيرة يرقد على شاهد الضريح بالقرب مني.. يا له من أمر غبي وغير لائق. رميته على الأرض، ولم يكن ذلك خبزًا، بل، كما قلت، جزءًا من شطيرة. لذا أعتقد أن الأمر ليس خطيئة أن تلقي بالخبز على الأرض، ولكن من الخطيئة أن تلقي به على الأرضية. يجب على أن أفحص ذلك الأمر في لائحة سيفورين الشهيرة.

أعتقد أني جلست هناك مدة طويلة.. مدة طويلة جدًا. في الواقع لابد أني قد رقدت هناك على صخرة طويلة كانت على شكل تابوت رخامي، أما عن كيفية حدوث ذلك فلا أدري! هل أسمع أصواتًا غريبة؟ في البداية لم أعر الأمر انتباهًا كافيًا، ولكن تعاملت معه بازدراء، ولكن المحادثة استمرت... لقد سمعت أصوات خافتة كما لو أن وسائد تضغط على أفواه المتحدثين وفي نفس الوقت كانت

واضحة ومحددة. انتبهت لنفسي ونهضت وبدأت في الاستماع باهتمام.

- هذا مستحيل يا صاحب السعادة. أنت تطرح الآن سبعة قلوب ولديك سبع ماسيات.. كان يجب أن تُلّمح لي بسباعية الماسيات هذه.
- ماذا؟ أتريدني أن ألعب طبقًا للقواعد؟ أين السحر في ذلك؟
- يا صاحب العادة يجب عليك ذلك. لا يمكن للمرء أن يلعب دون أية قواعد. يجب أن نغش في اللعب ويجب أن تكون هناك صفقات.
- حسنًا... لا يمكنك أن تكتشف أي غش هنا.. أيمكنك ذلك؟

يا لها من كلمات متعجرفة! كلمات غريبة غير متوقعة. كم كان المرء أحمق بذلك الصوت المبجل وذلك الصوت الآخر اللطيف.. لم يكن على أن أصدق إن لم أكن سمعته بنفسي. أعتقد أني لم أذهب إلى الغذاء المقام في الجنازة. فكيف يفضلون لعب الورق هنا ومن كان هذا الجنرال؟ هذه الأصوات أتت من أسفل المقابر.. هذا أمر لا شك فيه. انحنيت وقرأت على شاهد الضريح: "هنا يرقد جثمان اللواء بيرفوييدوف... الفارس".. وأشياء أخرى من ذلك

القبيل. حسنًا... رحل في أغسطس هذا العام عن عمر السابعة والخمسين.. فليرقد بسلام حتى يوم القيامة المجيدة. أممم.. يا للشيطان... إنه بلا شك لواء، وفي المقبرة الأخرى التي أتت منها أصوات متملقة لم يكن هناك شيء بعد مكتوب على حجر الضريح بل كانت هناك بلاطة فقط... يبدو أنه ميت حديث للغاية، ومن صوته يبدو أنه كان مستشارًا بالحاشية الملكية.

ثم سمعت صوت جديد يأتي من مقبرة جديدة صغيرة تبعد قليلا عن مقبرة الجنرال. إنه صوت رجل سوقي.. رجل يعمل ببقالة أو محل، ولكنه عدل صوته ليصبح مبجلا بشكل متصنع.

- أوه..أوه.. أوه.
- إنه يتجشأ مرة أخرى.

أتى ذلك الصوت المتعجرف المثير للغثيان تلك المرة من سيدة مجتمع غاضبة.

- يا له من أمر يجلب العذاب أن يكون المرء قريبًا من هذا البقال.

- أنا لم أتجشأ على الإطلاق وليس لدي طعام أيضًا. إنها فقط طبيعتي، ولماذا لا تَكُفّي أيتها السيدة النبيلة عن تلك النزوات وتصمتي قليلا؟!
- لماذا إذن ترقد هنا؟
- لقد وضعوني هنا.. زوجتي وأبنائي الأعزاء.. لم أقم بوضع نفسي هنا. إنه لغز الموت! وإن كان الأمر بيدي لم أكن سأنام بالقرب منك في أي ظرف، ولا حتى لو أعطوني ذهبًا. أنا أرقد هنا بسبب السعر، فبإمكاننا دائمًا أن نتدبر أمر مقبرة من الدرجة الثالثة.
- ولكنك تكدس الأموال هنا أيها المخادع.
- حسنًا... أنا لم أغشك، فمنذ يناير السابق وأنتِ لم تدفعي فاتورة واحدة. هناك حساب عليكِ الآن في المتجر.
- يا له من غبي! أتحاول تسوية حساب الفاتورة هنا؟! إنه أمر سخيف. أذهب إلى هناك.. إلى فوق وطالب ابنة أخي بالفاتورة فهي وريثتي.
- لا يمكنني فعل ذلك، فهذا ليس الوقت المناسب للمطالبة بالمال. بالإضافة إلى أن المرء لا يمكنه الذهاب هناك. كلانا قد عبر الحدود وأمام دينونة الرب كلانا آثم.

- آثم!!

قالتها السيدة وهي تحاكي صوته بازدراء وأكملت:

- يجدر بك ألا تجرؤ على الحديث معي على الإطلاق.
- أووه.. أووه...أووه.
- أترى يا صاحب السعادة.. يبدو أن البقال يذعن للسيدة.
- ولماذا لا يذعن لها؟
- لماذا؟ بسبب أنه كما ترى يا صاحب السعادة فإن الأمر هنا جديد.
- ماذا يعني بذلك؟
- حسنًا... يجب على المرء أن يشير إلى أننا ميتون سيادتكم.
- أمم.. الأمر هكذا إذن! الأمور على ما يرام.

حسنًا.. لقد اضطروا لأن يصمتوا ويستريحوا قليلا فلا شيء يُقال. إن وصل الأمر بالمرء إلى هنا، فما الذي ينتظره بالأعلى؟ يا لها من سخرية! ومع ذلك فقد واصلت الاستماع، ولكن تلك المرة بشعور فائق بالاستمتاع.

****

سمعت صوتًا جديدًا في تلك المسافة بين الجنرال وتلك السيدة السريعة الغضب يقول:

- أووه... ليتني كنت حيًا... لا... أنا...آه لو كنت حيًا!
- أستمع سعادتكم.. ها هو يبدأ مرة أخرى. لقد ظل صامتًا لثلاثة أيام وفجأة: أووه.. ليتني كنت حيًا! كم يقولها متلذذًا.. هاهاها.

فأضاف الجنرال:

- وبطيش أيضًا.
- هكذا الأمر معه. إنه نائم.. إلى حد ما نائم. هو معنا هنا منذ أبريل، وفجأة: ليتني كنت حيًا!
- إنه بليد الحس.
- نعم... ألا يعبر ذلك عن بلادة الحس؟ هل يزعج ذلك حقًا أدفوتيا إيجناتيفنا؟ هاهاها.
- أتمنى ألا يحدث ذلك بحق السماء، فلا يمكنني تحمل هذه المرأة المهتاجة.
- وأنا لا يمكنني تحملكما أنتما الاثنان.

جاء هذا الرد السريع من السيدة.

- كلاكما بليد الحس لا يمكنكما التكلم أبدًا عن أمور رفيعة الشأن. نعم.. أنا أشير إليكما....نعم.. أنت

وسعادتكم. لا تختال كثيرًا رجاءً. أعرف قصة قصيرة جميلة عنك. كيف حدث في أحد الأيام صباحًا أن طردك الخادم بالمقشة من فراش إحدى السيدات.

- يا لكِ من امرأة قذرة.

دمدم الجنرال صارًا على أسنانه. وفجأة صاح البقال معولاً:

- أدفوتيا إجناتيفنا. يا عزيزتي... أخبريني رجاء ما إن كنت الآن في طريقي إلى المطهر أم أن هذا شيء آخر؟

- آآه... ها هو يبدأ مجددًا. عرفت ذلك من الرائحة المنبعثة منه. فدائمًا ما يطلق تلك الرائحة عندما يبدأ.

- أنا لا أبدأ شيئًا أيتها السيدة، وليست هناك رائحة منبعثة مني. ما زلت في كامل جسدي وهو محفوظ في حالة جيدة. إنه أنتِ.. أنتِ أيتها السيدة من تفسخ جسدها. إن الرائحة التي تنبعث منك لا يمكن احتمالها حتى وإن كانت في ذلك المكان. لقد منعني حيائي فقط من ذكر ذلك لكِ من قبل.

- آآه أيها المجرم الكريه.. تصدر تلك الرائحة العفنة ثم تلقي بالتهمة علي!
- آآه... آآه فقط لو يحل اليوم الأربعون! سأسمع تلك الأصوات الباكية عليّ، وعويل زوجتي وبكاء أطفالي الهادئ.
- وجد شيئًا لينوح عليه.... سوف يتركونه وحده هنا. آآه... أرغب لو يستيقظ شخص آخر أيضًا.

ثم نادى ذلك الخادم المتملق:

- أدفوتيا إجناتيفنا.. انتظري برهة، فسوف يبدأ الجدد في الحديث.
- هل يوجد أي شباب بيننا؟
- نعم.. هناك شباب، بل إن هناك مراهقين صغارًا أيضًا.
- يا له من خبر سارا!

ثم سأل سيادة الجنرال:

- ألم يبدأوا بعد؟
- حتى أولئك الذين جاءوا منذ ثلاثة أيام لم يستيقظوا بعد سعادتكم. فكما تعرف بعضهم يظل صامتًا لأسبوع كامل. من الجيد أنهم قد قاموا

بالأمس، فهم مدفونين بالأرض منذ ثلاثة أيام غير يومنا هذا. ويبدو من على بعد عشرة فراسخ كما لو كنا جميعًا قد أتينا من العام الماضي.

- نعم.. سيكون الأمر شيقًا.
- نعم سعادتكم.. لقد دفنوا تاراسفيتش المستشار الخاص اليوم. أعرف ذلك من الأصوات، فأنا أعرف ابن أخيه وهو من دفن النعش.
- إممم.. وأين هو؟
- على بعد ما يقرب من خمس خطوات من سعادتكم ناحية اليسار. قريب جدًا من كعب سعادتكم.... يجب أن تتعرف عليه.
- إمم.. لا... لماذا يتوجب علي أن أقدم نفسي له؟
- أووه.. سيبدأ هو ذلك سعادتكم.. سيكون على فخر بذلك. أترك الأمر لي وسأرتب سعادتكم أن..
- أأه..أه..أه.. أين أنا؟

أتي ذلك الصوت الشاب الأخير مرتعبًا ومدويًا فجأة.

- ها هو صوت جديد يتحدث سعادتكم. صوت جديد الحمد لله. كم كان الأمر قريبًا! أحيانًا ما يستغرق الأمر أسبوع.

صرخت أدفوتيا إجناتيفنا:

- أووه.. أعتقد أنه صوت شاب.

ثم بدأ الشاب في التكلم:

- أنا... أنا.. لقد كان الأمر معقدًا ومفاجئًا للغاية! لقد قال دكتور شيلتز البارحة فقط لي: لديك أمر معقد، وفي الصباح مت.. مت فجأة.. آآه.. آآه.

علق الجنرال بشكل مهذب فرحًا دون شك بوصول شخصية جديدة قائلا:

- حسنًا... ليس هناك شيء نفعله حيال ذلك أيها الشاب. لابد وأنك تشعر بالراحة. نحن نرحب بك هنا في وادي يهوشافاط[7]. نحن أناس طيبون وسوف تتعرف بنا وتقدرنا. أنا الجنرال الأعلى فاسيلي فاسيليفتش بيرفويدوف.. في خدمتك.

- آآه... لا ... لا يمكن! إنه شولتز هو من يعالجني. يمكنك أن ترى كم هي حالتي معقدة. لقد كان هناك شيء ما ليس على ما يرام بصدري. لقد كان لدي ذلك السعال، ثم أصبت بالبرد.. مشاكل بالصدر وأنفلونزا... والآن.. وبشكل مفاجئ غير متوقع بدأ كل شيء.

[7] هو الموضع الذي ستجتمع فيه جميع الأمم أمام الرب في يوم الدين (يو 3: 2 و12) حسب بعض المعتقدات.

- أتقول إن الأمر بدأ مع الصدر؟

تدخل الموظف الحكومي في الحديث بلباقة راغبًا في طمأنة الوافد الجديد.

- نعم.. بدأ الأمر مع صدري وإصابتي بزكام، ثم تركني الزكام بعد ذلك، ولكن بقى الأمر مع صدري.. لم يمكنني التنفس بسهولة، وكما تعلم...
- نعم ..نعم أعلم. ولكن إن كان الأمر يخص الصدر فإنه كان يتوجب عليك التوجه لإيك لا لشولتز.
- لقد كنت أنوي الذهاب لبوتكين ولكن فجأة..

علق الجنرال:

- حسنًا.. بوتكين مكلف للغاية.
- آآه.. لا.. إنه ليس مكلفًا. لقد سمعت أنه شديد اللطف ويمكنه أن يخبرك بكل شيء مقدمًا.

قال الموظف الحكومي مصححًا:

- لقد كانت ملاحظة سعادته بخصوص سعره فقط.
- أأه.. لا يمكن أن تقصد ذلك. إنه يتقاضى ثلاثة روبلات فقط ويفحصك بشكل كامل ويعطي تلك الوصفات.. لقد عزمت على أن أراه لأنهم أخبروني..

آآه... ماذا أفعل الآن أيها السادة؟ هل علي أن أذهب لإيك أم لبوتكين؟

- ماذا؟ أين؟

اهتزت جثة الجنرال من فرط الضحك. ثم أتى صوت أدفوتيا إجناتيفنا باكية:

- ولدي العزيز.. ولدي الحبيب الغالي.. كم أحبك! لو كانوا قد وضعوك فقط بالقرب مني!

*****

لا... لا يمكنني السماح بأكثر من ذلك! هؤلاء هم موتانا اليوم! علي أن أستمع إلى المزيد ولا أتسرع في الوصول إلى استنتاجات سريعة. كم هو غر ساذج هذا الوافد الجديد! أذكره في تابوته وهو يبدو كالكتكوت المذعور.. لقد أظهر أكثر التعبيرات إثارة للتقزز في العالم، وعلى الرغم من ذلك دعنا ننتظر ونرى.

ولكن ما حدث بعد ذلك أربكني جدًا حتى أني لم أستطع أن أحتفظ به كاملا في ذاكرتي. فقد استيقظ الكثيرون فجأة في وقت واحد... استيقظ مستشار مدني

حكومي، وبدأ النقاش على الفور حول مشروع اللجنة الفرعية الجديدة بأحد الأقسام الحكومية، وعن إمكانية تحويل الكثير من الموظفين بخصوص اللجنة الفرعية، وهذا الأمر الأخير أثار انتباه الجنرال جدًا. ويتوجب علي أن أعترف أني تعلمت أمورًا كثيرة جديدة علي حتى أني تعجبت من الطرق الغريبة التي يعرف منها المرء أحيانًا في العاصمة أخبارًا حكومية. ثم أخذ مهندس بعد ذلك في الاستيقاظ، ولكنه ظل لوقت طويل يدمدم بكلام لا معنى له حتى توقف أصدقاؤنا عن القلق بشأنه وتركوه يرقد لحاله حتى يصبح جاهزًا. وفي النهاية أظهرت السيدة الشهيرة التي دُفنت في الصباح تحت منصة النعش بعض أعراض إنعاش المقبرة. وقد أصبح ليبيزياتنيكوف شديد الدهشة من استيقاظهم جميعًا سريعًا. و ليبيزياتنيكوف ذلك هو الموظف الحكومي المتزلف الذي كرهته والذي كان يرقد بجوار الجنرال بيرفويدوف، ويبدو فعلا متزلفًا[8]. وأنا نفسي تفاجأت للغاية أيضًا رغم أن بعض من استيقظوا كان قد دُفنوا منذ ثلاثة أيام، فعلى سبيل المثال كانت هناك فتاة صغيرة تبلغ من العمر ما يقرب من الستة عشر عامًا واصلت القهقهة بطريقة بذيئة مرعبة.

---

[8] الاسم بالروسية في الأصل مشتق من كلمة تعني متزلف أو منافق.

ثم أعلن ليبيزياتنيكوف فجأة سريعًا:

- يا سعادة الجنرال.. إن تاراسيفيتش يستيقظ!
- ماذا؟

دمدم المستشار الخاص الذي استيقظ فجأة بصوت متلعثم مضطرب، فأصغيت بانتباه فقد سمعت مؤخرًا بعض الأمور عن هذا التاراسيفيتش... بعض الأمور المثيرة والتي تنذر بخطر من الدرجة الأولى.

- إنه أنا يا سعادة الجنرال.
- وما طلبك؟
- فقط أستعلم عن صحة سعادتكم. يبدو المكان هنا مزدحمًا بعض الشيء. ربما يبدو كذلك لأني لم أعتد عليه بعد. إن الجنرال بيرفوييدوف يود أن يتشرف بالتعرف عليك ويأمل في..
- لم أسمع عنه قط.
- أحقًا سعادتكم؟! إنه الجنرال فاسيلي فاسيلييتش بيرفوييدوف..
- هل أنت الجنرال بيفوييدوف؟
- لا سعادتكم.. أنا ليبيزياتنيكوف.. مستشار مدني حكومي، ولكن الجنرال بيرفوييدوف..

- هراء... من فضلك أتركني لشأني.
- أتركه بمفرده.

قالها الجنرال بيرفوييدوف أخيرًا في كبرياء ليوقف سرعة الرجل غير المهذبة الكئيبة في الحديث والرد.

- إنه لم يتعاف بعد مما حدث سعادتكم... أرجو أن تضعوا هذا في اعتباركم الكريم.. إنه لم يتعود بعد.. هذا كل ما في الأمر، وعندما يتعافى مما حدث سينظر إلى الأمر بشكل مختلف.

ولم يلبث الجنرال أن كررها بحزم قائلا:

- أتركه بمفرده.
- فاسيلي فاسيلييفتش.. آآه.. أأنت هنا؟

أتى ذلك الصوت فجأة.. صوت عال وجريء بالقرب من أدفوتيا إجناتيفنا. كان الصوت لأحد الأرستقراطيين بتلك النبرة المضجرة الوقحة.

- إني أراك هنا منذ ساعتين، فأنا هنا منذ ثلاثة أيام. هل تذكرني يا فاسيلي فاسيلييفتش؟ إنه أنا.. كلينيفيتش. لقد اعتدنا على أن نلتقي فيفالكونيسكي حيث كانوا يسمحون لك بأن تأتي مع أني لم أعرف السبب أبدًا.

- لماذا الكونت بيتور بيتروفيت هنا؟! أنت هنا؟! أنت ما زلت شابًا.. كم أنا آسف لهذا!!

- وأنا أيضًا آسف. ما زلت أود الحصول على كل ما يمكن الحصول عليه من كل شيء ومن كل مكان. وبالإضافة لذلك فأنا لست كونتًا، ولكنني بارون.. مجرد بارون. نحن مجرد بارونات حقيرة تافهة متملقة. ولا أعرف السبب ولا أهتم بذلك. أنا مجرد نذل من المجتمع الأرستقراطي الزائف. كان أبي جنرالا صغيرًا، وأمي كانت تُستقبل يومًا ما في الأوساط الراقية.9 في العام الماضي عقدت صفقة مع زيفيل اليهودي وقمت بتزوير خمسين ألفًا من الروبلات ثم بلغت عنه ولكن يوليا شاربنتيير دي لوسيجنان قامت بالاستيلاء على الأموال وهربت بها إلى بورديو. هل تتخيل ذلك! لقد قمت بخطبة فتاة لم تبلغ بعد السادسة عشرة فقد تبقى لها ثلاثة أشهر لتبلغها.. أنت تعرفها.. إنها الآنسة شيفاليفسكي ذات المهر الذي تبلغ قيمته تسعون ألفًا. يا أدفوتيا إجناتيفنا.. أتذكرين منذ خمسة

[9] مكتوبة بالفرنسية في الأصل.

عشر عامًا عندما كنت فارسًا يبلغ من العمر الأربعين عامًا، وكيف أغويتِني؟

- آآه... أهو أنت أيها الوغد! ومع ذلك فالحمد لله أنهم أرسلوك هنا فالمكان هنا... شديد الـ...
- لقد كنتِ على خطأ في الشك في جارك التاجر بخصوص تلك الرائحة السيئة. لقد ظللت صامتًا كاتمًا الضحك، فالرائحة كانت مني. لقد دفنوني في تابوت على عجلة.
- آآه أيها المقيت! ولكني ما زلت سعيدة بإرسالك إلى هنا، فأنت لا يمكنك تخيل انعدام الحياة والرطوبة هنا.
- حسنًا حسنًا.. أعلم ذلك، ولكني أنوي أن أقدم هنا شيئًا أصليًا سعادتكم.. لا أعنيك أنتِ يا بيرفويدوفا، لكني أعنيكم أنتم سعادتكم، وأيضًا تاراسيفيتش المستشار الخاص. أجبني! أنا كلينيفيتش الذي اصطحبك إلى فيوري. أتسمعني؟
- نعم أسمعك يا كلينيفيتش، وأنا أيضًا سعيد للغاية.
- لا أصدقك إطلاقًا، ليأخذك الشيطان! كنت سأغطيك بالقبلات يا رفيقي القديم، ولكن حمدًا لله أني لا أستطيع فعل ذلك.. أتعرفون أيها السادة

والسيدات ماذا فعل هذا الجد العجوز[10]؟ عندما مات من يومين أو ثلاثة ترك من خلفه نقصًا في الحسابات يقدر بأربعمائة ألف روبل. أتتخيلون ذلك! لقد كانت الأموال لأرامل وأيتام، ولسبب ما كان يدير القسم بمفرده، ولما يقرب من ثمانية أعوام لم يكن أحد يراقبه. تخيل وجوههم الآن، والطريقة التي يتكلمون بها عنه. يا لها من فكرة فاسقة! أليس كذلك؟! كنت أشعر بالتعجب طوال العام الماضي كيف يمكن لهذا العجوز الغريب الأطوار الذي بلغ من العمر سبعين عامًا ولديه داء بالمفاصل في يديه ورجليه أن يحتفظ بالقوة اللازمة للفسق والغواية؟! والآن فالإجابة قد ظهرت! لابد وأن هؤلاء الأرامل والأيتام قد حرضوه.. أعرف عن ذلك منذ مدة طويلة، فقد كنت الوحيد الذي عرف الأمر. لقد أخبرني جولي، وما إن اكتشفت ذلك حتى هاجمته بطريقة ودية على الفور في أسبوع عيد القيامة قائلا: " أعطني خمسة وعشرين ألفًا، وإن لم تفعل ذلك فسيبدأون في فحص سجلاتك من الغد". وقد كان قادرًا على إعداد ثلاثة

[10]كتب الجد العجوز بالفرنسية في الأصل.

عشر ألفًا فقط... يبدو وكأنه قد مات في الوقت المناسب.. أيها الجد.. أيها الجد.. أتسمعني؟[11]

- أوافقك القول تمامًا يا كلينيفيتش، ولكن لم يكن عليك أن... أن تدخل في كل تلك التفاصيل. في الحياة ليس ثمة معاناة مثل تلك المعاناة، وهناك القليل فقط من المكافآت.. كنت آمل في الماضي لو أعيش في سلام، وبقدر المستطاع أرغب في تحقيق كل ما يمكنني تحقيقه من ذلك حتى هنا!
- أراهن أنه قد اشتم بالفعل رائحة كاتيش بيريستوي!
- من؟ كاتيش من؟

ارتعش صوت العجوز بشبق.

- آه.. كاتيش من؟ ها هي على يسارك على بعد خمس خطوات مني، وعشرة منك. إنه اليوم الخامس منذ أن جاءت هنا، ولو تعرف فقط يا جدي العزيز كم هي بائسة! إنها تنحدر من عائلة مرموقة ومثقفة، ولكنها وحش! وحش! كنت الوحيد الذي عرفتها هنا... كاتيش.. أجيبي!
- هاهاها..

[11] بالفرنسية في الأصل.

أتى صوت الفتاة مقهقهًا وحادًا كالإبرة.

- هاهاها.

- وشقراء أيضًا؟

قالها الجد متلعثمًا.

- هاهاها...

تلعثم مرة أخرى الرجل متقطع الأنفاس قائلا:

- لدي.. لدي.. ذكرى حلم طويل عن شقراء صغيرة في غضون الخامسة عشرة في مكان يشبه هذا المكان.

- أنت وحش!

قالتها أدفوتياإجناتيفنا، لتقاطعها فجأة كلينيفيتش:

- كفى... أعتقد أنه لدينا شيء عظيم هنا. يجب علينا أن نعيد ترتيب الأمور بشكل جيد. والشيء العظيم هنا هو أن نقضي بقية الوقت الذي لدينا في سعادة.. ولكن كم مقدار هذا الوقت؟ أنت أيها الموظف الحكومي... ليبيزياتنيكوف أو أيًا كان اسمك.. لقد سمعت أن هذا هو اسمك.

- سيميون يفسييتش ليبيزياتنيكوف.. مستشار حكومي صغير في خدمتك، وإني شديد السرور جدًا بلقائك.

- لا يهمني ما إن كنت مسرورًا بلقائي أم لا، ولكن أخبرني أولا كيف يمكننا التحدث؟ إني أشعر بالتعجب منذ الأمس. نحن موتى، ومازلنا نتكلم ويبدو كما لو كنا نتحرك ولكننا في الواقع لا نتكلم ولا نتحرك. ما هذا الخداع؟
- إن كنتِ تريدين تفسيرًا لذلك، فربما يكون لدى البارون بلاتون نيكلايفيتش تفسيرًا أفضل مما لدي.
- من بلاتون نيكلايفيتش هذا؟ لا تلف وتدور حول الأمر. هات ما عندك.
- بلاتون نيكلايفيتش هو فيلسوفنا الوطني.. إنه عالم وأستاذ في الفنون. لقد أصدر العديد من الأعمال الفلسفية، ولكن مرت ثلاثة شهور منذ أن غرق في النوم، ولم يعد من الممكن إيقاظه. لقد دمدم ببعض الكلمات منذ حوالي أسبوع، ولكنها لم تحمل معنى واضحًا.
- لتكن مباشرًا.. هات ما عندك.. هات ما عندك.
- لقد فسر الأمر برمته ببساطة شديدة. عندما كنا أحياء بالأعلى كنا نظن بشكل خاطئ أن الموت هناك كان عبارة عن الموت.. ولكن الجسد يعود إلى

الحياة مرة أخرى وبقايا الحياة موجودة ومركزة ولكن فقط في الوعي. وأنا لا أعلم كيف أعبّر عن ذلك، ولكن الحياة تستمر كما لو كان يحدث ذلك بالقصور الذاتي. وطبقًا لرأيه فكل ذلك يتركز في مكان ما في الوعي، ويستمر لشهرين أو ثلاثة آخرين، وأحيانًا يطول الأمر حتى ستة شهور. وهنا على سبيل المثال هناك أحد الرفاق قد تعفن إلى حد ما، ولكن مرت ستة أسابيع ومازال يهمهم قليلا ببعض الكلمات.. كلمات لا معنى لها. إنه يقول: بوبوك... بوبوك... شيئًا يشبه ذلك، ومازالت شرارة ضئيلة جدًا من الحياة تومض فيه.

- هراء.. أخبرني كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ كيف يمكن أن أشم تلك الرائحة النتنة؟

- هذا بسبب.. هاهاها.. حسنًا.. بخصوص تلك النقطة، فإن فيلسوفنا الصغير يبدو غير واضح. لقد لاحظ أن هناك نتانة.. نتانة أخلاقية هنا. هاهاها... نتانة الروح، وكما يقول ليذكرنا فقد حدث ذلك في خلال هذين الشهرين أو الثلاثة منذ أن أمكننا أن نعرف أنفسنا حقيقة. يمكن القول إن هذه هي الرحمة الأخيرة، وأعتقد أيها البارون أن

هذه الأفكار هي نتاج هذيان صوفي يمكن تبريره بالطبع في هذه الظروف.

- يكفي ذلك.. من المؤكد أن بقية الكلام سيكون مجرد هراء فارغ. ولكن الشيء العظيم أن لدينا ما يقرب من شهرين أو ثلاثة من الحياة، ومن بعدها ... بوبوك... بوبوك! أقترح أن نقضي هذين الشهرين أو الثلاثة بشكل ملائم قدر الإمكان، وأن نرتب كل شيء على أساس قاعدة جديدة. أيها السادة! إني أقترح ألا نخجل من شيء.

ولم تلبث أن تصاعدت أصوات عديدة قوية قائلة:

- نعم.. نعم فلنطرح عنا كل الخزي.. فلنقم بذلك.

وصاحبتها أصوات من استيقظوا للتو. واستيقظ المهندس تمامًا مجاهرًا بموافقته، وبدأت الفتاة كاتيش في الضحك بصوت عال. وقالت إدوفتيا إجناتيفنا بحماس:

- آآه... كم اشتقت ألا أشعر بالخزي من شيء!
- انظروا هنا.. إن كانت إدفوتيا إجناتيفنا على استعداد لعدم الشعور بالخزي من شيء فـ....

- لا لا يا كلينيفيتش. بالأعلى قد تعودت على الشعور بالخزي، ولكن هنا فإني أريد بإخلاص ألا أشعر بالخزي من شيء.

فأجابه المهندس:

- أتفهم يا كلينيفيتش أنك تقترح أن نعيد تأسيس حياتنا الحاضرة على أساس مبادئ جديدة وعقلانية.

- لمَ أخزى من ذلك؟ دعنا ننتظر برهة كيدياروف. لقد أحضروه هنا بالأمس. ومتى يأتي فسوف يشرح ذلك لكم جميعًا. وأعتقد أن غدًا سيقومون بإحضار شخص آخر.. عالم طبيعة، وربما ضابط إن كنت غير مخطئ. وفي غضون يومين آخرين سيقومون بإحضار محرر عامود بإحدى الجرائد بصحبة رئيس تحريره أيضًا. ولكن فليأخذهم الشيطان جميعًا.. ستكون هناك مجموعة صغيرة منا على أية حال، وسوف نقوم بترتيب الأمور. ولكن أثناء ذلك لا أود أن نكذب على بعضنا البعض.. هذا كل ما أرغب فيه، فهذا هو الشيء الذي يهم حقًا. لا يمكن للمرء أن يتواجد أعلى دون أن يكذب، فالحياة والكذب مصطلحان مترادفان،

ولكن هنا سنقوم بتسلية أنفسنا بعدم الكذب. فلنذهب إلى الجحيم... فللمقبرة فائدة على أية حال. يتوجب علينا أن يروي كل منا قصته بصوت عال ودون شعور بالخزي. كما تعلمون فإني من آكلي اللحوم. وقد كان كل ذلك على السطح بالأعلى مرتبطًا بالعفن.. دعنا نعيش هذين الشهرين في نور الحقيقة التي لا تخزى.. فلنعري أنفسنا.. فلنجردها من كل شيء!

وسرعان ما تعالت أصوات كثيرة:

- فلنعري أنفسنا.. فلنعري أنفسنا.

وصرخت إدوفتيا إجناتيفنا:

- أريد حقًا أن أعري نفسي.
- - آآه.. يبدو أن الأمر سيكون مرحًا هنا. لا أريد إذن أن أذهب إلى الطبيب إيك.
- لا... أريد أن أحظى أنا أيضًا بوقت ممتع.. سوف أحظى به هنا بالتاكيد.

وسرعان ما قهقهت كاتيش:

- هاهاها.

- تذكروا.. بادئ ذي بدء لا يمكن لأحد أن يمنعنا من ذلك هنا، ومع أني أرى بيفويدوف يستهجن الأمر، إلا أن يده مازالت لا يمكنها أن تصل إلي. أتوافقني جدي العزيز؟
- تمامًا تمامًا، وبكل سرور أيضًا، ولكن على شرط واحد أن تكون كاتيش البادئة بسرد سيرة حياتها.

قال الجنرال بيرفويدوف بكل حزم:

- أعترض على ذلك.. أعترض بكل قوتي على ذلك.
- يا سعادة الجنرال..

بدأ الوغد ليبيزياتنيكوف في إقناعه متلعثمًا بصوت خفيض:

- يا سعادة الجنرال بالتأكيد سيكون الأمر مفيدًا أكثر لنا إن وافقنا. يمكنك أن ترى أنه لدينا هذه الفتاة هنا.. و... وفي النهاية فكل هذه الأمور مجرد اختلافات بسيطة..
- حسنًا... لدينا فعلا هذه الفتاة لكن..
- إن الأمر أكثر فائدة لنا سعادتكم. أقسم لك أنه أكثر فائدة لنا! إنها مجرد نموذج فدعنا نجرب أن..
- حتى في القبر لا يمكن للمرء أن ينعم بالسلام؟!

- بادئ ذي بدء فأنت أيها الجنرال تلعب الورق في القبر، وثانيًا يمكنك أن تذهب إلى الجحيم.

تمتم كلينيفيتش بهذه الكلمات فصاح الجنرال:

- سيدي... احذر.. راقب كلماتك ولا تنس نفسك.
- ماذا؟! لا يمكنك أن تصل إليّ، ولكن يمكنني أن أعذبك من هنا ككلب يوليا الصغير. وأريد أن أضيف شيئًا آخر أيها السادة... كيف يمكننا أن نظل نطلق عليه جنرالا هنا؟ لقد كان جنرالا هناك، ولكن الأمر هنا مرفوض كلية.
- لا... الأمر ليس مرفوضًا حتى هنا..
- هنا ستتعفن في المقبرة، ولن يتبقى منك سوى ستة أزره معدنية.. فقط هذا ما سيتبقى منك.

تعالت أصوات مختلفة:

- برافو كلينيفيتش.. هاهاها.
- لقد خدمت سيدي.. لدى سيفي..
- سيفك لم يعد يصلح لشيء سوى لوخز فأر ولن تستله حتى لذلك الأمر.
- هذا لا يشكل فارقًا. لقد خدمت الوطن.
- برافو كلينيفتش برافو.. هاهاها.

ثم قال المهندس:

- لا يمكنني أن أفهم ماذا يشكل السيف.
- يجب علينا أن نهرب من البروسيين كالفئران. فسوف يطحنونا تمامًا.

صرخت بهذه الجملة أحد الأصوات غير المعروفة.

- السيف يا سيد يعني الفخر، و..

حاول الجنرال أن يصرخ بهذه الكلمات ولكني بالكاد سمعته، فقد تعالى صوت هدير طويل غاضب.. شغب كامل وهرج ومرج ، ومن وسطه كان يمكنني تمييز صوت صرخات إدفوتيا إجناتيفنا الهيستيرية التي لا يمكنها أن تحتمل:

- دعنا نبدأ فورًا.. دعنا نبدأ! متى يكون بمقدورنا ألا نشعر بالخزي من شيء؟!
- آآه.. آآه.. من المؤكد أن روحي ستذهب إلى عذاباتها.

بدأ بذلك صوت التاجر ثم...

ثم عطست فجأة. حدث ذلك عفويًا دون سابق إنذار، ولكن أثر ذلك كان مذهلا. صمت كل شيء كما هو الأمر في المقابر.. اختفى كل شيء وتلاشى كالحلم. خيّم

الصمت تمامًا على المقبرة. لا أظن أنهم شعروا بالخزي عندما شعروا بحضوري، فقد كانوا قد عزموا بالفعل على التحرر من الخزي تمامًا! انتظرت خمس دقائق، ولم أسمع كلمة واحدة.. ولا صوت. لا يمكن افتراض أنهم كانوا خائفين من أن أخبر الشرطة فماذا ستفعل الشرطة لهم؟ لابد أن أستنتج أن لديهم سرًا ما خطيرًا غير معروف للأحياء يحرصون على إخفائه عن بقية الموتى.

- حسنًا أعزائي.. أعتقد أنه يجدر بي زيارتكم مرة أخرى.

وغادرت المقابر بعد هذه الكلمات.

لا... لا يمكنني الاعتراف بذلك.. في الحقيقة لا يمكنني على الإطلاق! إن قضية بوبوك لا تضايقني في شيء أيًا كان ما عنته بوبوك .

إنه الفسق حتى لو في مكان كذلك المكان.. فسق الآمال الأخيرة.. فسق الجثث الضعيفة المتعفنة حتى ولو كانت في اللحظات الأخيرة من الوعي! لقد مُنحت تلك اللحظات إليهم كهدية، وكان الشيء الأساسي فيها... لا.. لا يمكنني الإقرار بذلك!

يتوجب علي أن أزور أماكن أخرى في المقابر مرة ثانية. سوف أستمع في كل مكان إلى تلك الأصوات... نعم.. إن ذلك أمر ضروري. فلكي يتعلم المرء ويعرف عليه أن يستمع في كل مكان وليس في مكان واحد بعينه. ربما سأجد شيئًا آخر جيدًا، أما هنا.. فبالتأكيد سآتي مرة أخرى. فقد وعدوني بأن يقصوا على قصصهم المتنوعة ونوادرهم المختلفة. تبًا لذلك! لابد وأن آتي حتمًا.. إنها مسألة ضمير.

سأرسل ذلك إلى صحيفة جراشدانين[12].. نعم.. لقد نشروا بورتريه لمحرر ما، وبالتأكيد سوف ينشرون ذلك.

---

[12] جراشدانين تعني المواطن.وهي صحيفة مشهورة بروسيا. كانت تنشر في ذلك الوقت.

الفهرس

هذه المجموعة تضم ثلاث قصص مفقودة للأديب العظيم: دستويفسكي. فبعد أن قارنت بدقة بين أعمال دستويفسكي في الأصل الروسي والأعمال التي ترجمها لنا المرحوم سامي الدروبي اكتشفت فقدان خمس قصص. هذه القصص تشمل الثلاث المنشورة بهذا الكتاب بالإضافة لقصتين أخريين لم أقم بترجمتهما؛ لأنه قد سبق لدار التقدم بموسكو بالفعل أن قامت بنشرهما في ترجمة رائعة ضمن كتاب يشمل قصصًا مختلفة لدستويفسكي.

أما عن القصص الثلاث الواردة في هذا الكتاب؛ فأولها: الفلاح ماري لم تترجم إلى العربية من قبل، والثانية: صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد تُرجمت ترجمة مختصرة على بعض المنتديات، وهي ترجمة من الإنجليزية أسقطت الجزء الأول من القصة بالإضافة لكونها غير دقيقة في بعض مواضعها، وترجمت أيضًا إلى عنوان خاطئ. القصة الثالثة: بوبوك لم تترجم أو تنشر في مصر من قبل.

روافد للنشر والتوزيع